

العصر الذى عاش فيه فيلسوف العرب

— للدكتور عبدالرحمن شاه ولى

سنحاول فى هذا الفصل شرح التيارات الفكرية فى عصر الكندى ، و بيان بعض ميزاته الثقافية و السياسية و الاجتماعية و ما الى ذلك من نفوذ الاعاجم و تأثيرهم فى الحياة اليومية ، و تأثير الثقافة الاجنبية فى البيئه الاسلاميه العربيه ، و ما أورثه هذا التأثير و التأثير من ازدهار و تقدم فى الثقافه العربيه و الحضارة الاسلاميه ، و ما تركه من آلام و أسقام اجتماعيه . و سأحاول الاختصار فى هذا العرض السريع حسب المقدور .

مزايا عصره :

عاش فيلسوف العرب فى العصر العباسى الزاهر زهاء ست و ستين سنه ، أيام خلافة الامين (٨٠٩ - ٨١٣) ، و المأسون (٨١٣ - ٨٣٣) ، و المعتصم (٨٣٣ - ٨٤٢) ، و الواثق (٨٤٢ - ٨٤٧) ، و المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١) ، و قد كانت الدوله العباسيه فى النصف الاول من القرن التاسع الميلادى فى ذروة عزها السياسى و مجدها الفكرى و قوتها العسكريه ، و كانت لها علاقات طيبه مع الافرنج الذين كانوا أعداء الاسويين فى ذلك الوقت فى أسبانيا . و كانت بغداد حينذاك أفخم مدينه فى العالم بقصورها العاليه و حدائقها و حماماتها العامه و منتزهاتها و أسواقها المليئه بأنواع من البضائع الرائعه ، و مراكزها العلميه .

وقد كانت الدوله الاسلاميه فى العصر العباسى تضم بين جنباتها أصقاعا

مترامية" ، و بلادا مختلفه" ، و أسما متباينه" في أصولها البشرية" ، و مزاياها العقلية" ، و ميولها الطبيعية" ، و سمياتها الثقافية" و الأدبية" و العاطفية" . فكان لكل من تلك الأسم أدب و فلسفه" و طبيعه" و ميول عاطفيه" و طبيعیه" و دين و تاريخ . و كانت أجزاء الدوله" العباسيه" الاسلاميه" في ذلك العصر: الهند و فارس و العراق و مصر و الشام و جزيره العرب و ما وراء النهر، فقد اجتمعت هذه البلدان المتراميه" في دوله" واحده" ، كانت عاصمتها بغداد مقر الحكم و الخليفه" ، و كانت في أوجها الثقافي و الفكري ، الى جانب عزها المادى و آثارها العمرانيه" ، و أهميتها في المجالين الدولى و السياسى ، و كان الخليفه" العباسى يحكم تلك البلاد المتراميه" ، و الأسم المتباينه" في الصفات و المزايا و التقاليد و العادات .

بين الجاحظ مزايا بعض الأسم في عصره فقال : "میزة سكان الصين الصناعه" ، فهم أصحاب السبك و الصياغه" و الافراغ و الاذابه" و الاصباغ العجيبه" ، و أصحاب الخراط و النحت و التصادير و النسيج ، و اليونانيون يعرفون العلل ولا يباشرون العمل و ميزتهم الحكم و الاداب ، لم يكونوا تجارا ولا صناعا ولا أطباء ولا حسابا ولا أصحاب فلاحه" فيكونوا مهنه" ، ولا أصحاب زرع لخوفهم من صغار الجزيه" ، ولا طلبوا المعاش من ألسنه" المكابيل و رؤس الموازين ، ولا عرفوا الدوانيق و القراريط ، فحين حملوا حدهم و وجهوا قواهم الى قول الشعر و بلاغه" المنطق و تشقيق اللغه" و تصاريف الكلام و قيافه" البشر — بعد قيافه" الاثر — و حفظ النسب و الاهتداء بالنجوم و الاستدلال بالآثار و تعرف الانواء و البصر بالخيل و السلاح و آله" الحرب ، و الحفظ لكل سميع ، و الاعتبار بكل محسوس و احكام شأن المناقب و المثالب بلغوا

فى ذلك الغايه . و ميزة آل ساسان : فى المذك و السياسه ، و الاترك فى الحرب (١) .

و قد ذكر ابن قتيبه اختلاف المسلمين فى ذلك العصر فى الميول العاطفيه و المذهبيه و التكوين الجسمى ، فنقل الروايه التاليه : ” قال محمد بن على ابن عبد الله بن عباس لرجال الدعوه حين اختارهم للدعوه و أراد توجيههم : ” أما الكوفه و سوادها — فهناك شيعه على بن أبى طالب ، أما البصره فعثمانيه تدين بالكف و تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، و أما الجزيره فحروريه ماركه ، و أعراب و مسلمون فى أخلاق النصارى ، و أما أهل الشام فليس يعرفون الا آل أبى سفيان و طاعه بنى مروان عداوة لنا راسخه و جهلا متراكما ، و أما أهل مكه و المدينه فقد غلب عليهما أبوبكر و عمر . ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير ، و الجلد الظاهر ، و صدورا سليمه ، و قلوبا فارغه ، لم تنقسمها الا هواء ، و لم تتوزعها النحل ، و لم تشغلها ديانه ، و لم يتقدم فيها فساد ، و ليست لهم اليوم همم العرب ، و لا فيهم كتحازب الا اتباع بالسادات ، و كتتحالف القبائل ، و عصبية العشائر . و لم يزالوا يذللون و يمتهنون و يظلمون و يكظمون و يؤملون الدول ، و هم جند لهم أجسام و أبدان ، و سناكب و كواهل ، و هامات و لحي و شوارب و أصوات هائله و لغات فخمه تخرج من أفواه منكرة . ” (٢)

فقد كانت الدوله الاسلاميه تحتوى على هذه العناصر المختلفه المتباينه فى الميول و الا هواء و الطبيعه و المزاج و الديانه ، و تمسك كل منهم بتقاليده و عاداته و مزاياه . و مع هذه الاختلافات كانت تلك العناصر تكون الدوله الاسلاميه فى العصر العباسى الاول و كانت ساحتها و عاء تصهر فيه هذه المواد المختلفه

وتتفاعل فيه الأجسام المختلفة كيميائياً. وقد كانت هناك عوامل قوية ساعدت على هذا الاستزاج. (٣)

ومن عوامل هذا الاستزاج كثرة المولدين في العصر العباسي — حيث أن العرب تزوجوا من العجميات : من الفارسيات والروسيات وغيرهن ، وقد نتج عن ذلك جيل جديد يجري في عروقه دم الأستين .

و كان لكثرة المولدين في ذلك العصر أسباب — منها نظام الرق والولاء الذي طبق بعد الفتح الاسلامي ، فقد أصبح البيت الاسلامي — وخصوصا بيوت الخلفاء و الأمراء والأغنياء — ”عصبه“ أسم ، ينتج من النسل ما يحل خصائص الأسم المختلفة . خذ لذلك مثلاً : بيت أبي جعفر المنصور ، فقد كان في بيته : أروى بنت منصور الحميري ، أولدها المهدي ، و جعفر الأكبر ، و أمه ” كرده “ كان المنصور اشتراها فسراها ، فولدت له جعفر الأصغر ، و أمه ” روميه “ يقال لها ” فال “ ، أولدها ” صالحا المسكين “ ، و امرأة من بني أميه — أولدها بنتا تسمى العالیه . هذ — مع أن أبا جعفر لم يسرف في التسرى اسراف من أتى بعده . ” و كان للرشيد زهاء ألفى جاريه من المغنيات و الخدمه “ في الشراب ، في أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب والجوهر . “ ، ” و يقال أنه كان للمتوكل أربعه آلاف سريه . “ (٤)

وقد كان نسل الاماء و الحرائر من العجميات أكثر من نسل العرييات ، وذلك لسببين : أولهما قلة العرييات ولوع الناس بالاختلاط بغير العرب — وذلك لأن الجمال في نساء الاسم المفتوحه من العجم كان أكثر وأوفر بالنسبه للعرييات و ثانيهما ما ذكر الجاحظ من أن عادة التزوج بالحرائر كانت في عهده كعادة المحافظين الشرقيين الآن ، ألا ينظر الرجل الى من يريد أن يتزوجها ، ولكن تتوسط ” الخاطبه “ ، فتروى له من محاسنها ما تشاء .

وقد لا يتفق ذوقها وذوقه... وليس ذلك هو الشأن في الأمهات، فهو يراها قبل أن يقدم على تملكها. (٥) وكما روى أن العرب "من قديم آسنوا بأن الزواج من الأباعد خير من الزواج بالأقارب. وروى في الخبر: اغتربوا، ولا تضيوا، وقال الشاعر:

فتى لم تلده بنت عم قريبه
فيضوى وقد يضي رديد القرائب
وقال آخر:

أنذر من كان بعيد المهتم تزويج بنات أولاد العم

غجر ناج من ضوى وسقم

وروا أن عمر نظر إلى قوم من قريش من صغار الأجسام فقال: مالكم صغرتم؟ قالوا: قرب أسهاتنا من آبائنا، قال: صدقتم، اغتربوا فتزوجوا من البعده فأنجبوا. (٦)

و نتيجة لذلك الاختلاط، نشأ جيل جديد كان يحمل المزايا والصفات الخاصة به: "حتى أن بعض الخلفاء أنفسهم كانوا من هذا الصنف: فالخيزران: سبيه هي من خرشنه، ولدت موسى الهادي و هارون الرشيد ابني محمد المهدي، و شاهسفرم بنت فيروز بن يزدجرد بن شهریار بن كسرى أبرويز، ولدت للوليد بن عبد الملك يزيد بن الوليد الناقص، و ابراهيم بن الوليد المخلوع. و مروان بن محمد ابن أمه كرده، و أبو جعفر المنصور، أمه بربريه اسمها سلامه، و المأمون أمه أمه تسمى مراحل، و المعتصم أمه أمه تسمى ماردة، و الواثق أمه أمه تسمى قراطيس، و المتوكل أمه أمه تسمى شجاع، و مثل ذلك العلماء و الشعراء". (٧)

و هذا الاختلاط تسبب في نشأة الفكر الجديد ، و تقدم العلم لدى العرب حيث اطلعوا على علوم الأجنبي ، و أخذوا عن مواطنيهم في الدولة الإسلامية معارف الفرس و الهنود و الروم ، وغيرهم من أفكار الأمم المتحضرة و فلسفتها و أدبها حتى تغير مجرى الأدب العربي أيضا من هذا الاختلاط ، و أخذ نهجا جديدا ، و تطورت أساليب النثر و النظم ، و تغير الشعر وزنا و مضمونا ، و ظهر تصادم الأفكار و الميول لتباين عقول العناصر المختلفة في الدولة الإسلامية ، و وجد علماء الاسلام أساليبهم تيارات و أفكار جديدة ، و وجدوا أنفسهم مضطرين الى أن يختاروا منها موقفا سليما في رفضها أو قبولها ، بعد عرضها على ما هو مقياس الحق و الباطل ، و ميزان العقائد و الأفكار ، و أن يجهزوا أنفسهم بما يقويهم في الدفاع عن العقائد الإسلامية اذا نزلوا في ساحه الجدل لدحض الأفكار الخارجة على الاسلام ، ، و كما كان هناك (توليد) بين الأجسام ، كان هناك توليد عقلي - فعقول الناس من الأمم المختلفة كان يتناولها اللقاح . فالفارسي يحمل عقلا فارسيا ، ثم يعتنق الاسلام ، و يتعلم اللغة العربية ، فينشأ مزيج من العقلين ، تتولد منه أفكار جديدة ، و معان جديدة . و اليوناني النصراني ، أو الروسي النصراني ، أو العراقي اليهودي ، يخالط العربي المسلم ، و يتبادلان الرأي و القصص و الفكرة ، فينشأ من ذلك فكر جديد ، و هكذا . و من ثم كان الأدب العربي بمعناه الواسع - الذي يشمل كل ثقافته - ليس في الحقيقة أدبا عربيا ، و إنما هو "مزيج" ، طبع بالطابع العربي الاسلامي ، فسمى أدبا عربيا ، . (٨)

و لم يكن اختلاط العرب بالأجنبي منذ العصر العباسي فقط ، بل ان اتصالهم بالعجم منذ عصر الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب ، وقد اتسع نطاق

هذا الاتصال في عصر بني أمية تبعا لاتساع الدولة الاسلامية و كثرة الفتوحات . و يدل على مدى هذا الاختلاط بين العرب و العجم في العصر الاُسوي ما روى من أن أكثر الفقهاء في أنحاء العالم الاسلامي كانوا موالى و من غير العرب . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ” لما مات العبادلة : عبد الله ابن عباس ، و عبد الله بن الزبير ، و عبد الله بن عمرو بن العاص ، صار الفقه في جميع البلدان الى الموالى ، فكان فقيه أهل مكة عطاء بن رباح ، و فقيه أهل اليمن طاووس ، و فقيه أهل اليمامة يحيى بن كثير ، و فقيه أهل الكوفة ابراهيم ، و فقيه أهل البصرة الحسن ، و فقيه أهل الشام مكحول ، و فقيه أهل خراسان عطاء الخراساني ، الا المدينة - فان الله خصها بقرشي فكان فقيه أهل المدينة سعيد بن المسيب غير مدافع “ . (٩)

هكذا احتل الموالى المراكز العلمية الهامة في أنحاء العالم الاسلامي في العصر الاُسوي ، مشعلين سراج الفقه و الحكمة و الادب . يقول الأستاذ مصطفى عبد الرازق : ” و لما مضى عهد الصحابة بين تسعين و مائة من الهجرة ، و جاء عهد التابعين ، انتقل أمر الفتيا و العلم بالاحكام الى الموالى الا قليلا (١٠) “ و يقول أيضا : ” و جاء في كتاب ” الخطط للمقرئى : ” و عن عون بن سليمان الحضرمي قال : ” كان عمر بن عبد العزيز قد جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال : رجلا من الموالى ، و رجلا من العرب ، فأما العربي فجعفر ابن ربيعة ، و أما المولىان فيزيد بن أبي حبيب ، و عبد الله بن أبي جعفر . فكان العرب أنكروا ذلك فقال عمر بن عبد العزيز : ما ذنبي اذا كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا ، و أنتم لا تسمون ؟ “ (١١) و فضلا عن هذا فان أكثر الكتاب و أهل القلم في العصر الاُسوي كانوا من الموالى كما مر سابقا ،

و كذلك كان بعض الأمراء الأمويين مثل يزيد بن الوليد، و ابراهيم بن الوليد، و مروان بن محمد، من أولاد الاماء .

كل ذلك يدل على أن اختلاط العرب بالعجم كان موجودا في العصر الأموي أيضا . و لكن، لما كان أساس الحكم في العصر الأموي مبنيًا على العصبية العربية - زعمنا منهم أن العرب يجري في عروقهم دم ممتاز، ولا يساوي بهم أحد من الأمم الأخرى سهما كان دينه و خلقه و ثقافته - فقد أقام ذلك سدا منيعا أمام الفرس و العجم عامة في وصولهم الى المناصب الحكومية و نفوذهم في الجهاز الحكومي الأموي . و كانت سياسة الامتياز بين الشريف و المشروف، العربي و العجمي من دعائم الحكم الأموي التي أسسوا عليها صرح هذا الحكم الجائر المتناقض . و لأجل هذا السبب وحده التف المغرضون من العرب حول الأمويين - لا لنصرة الحق و تأييد الاسلام - بل طمعا في المناصب و الأموال . و قد تنبه الى ذلك في أول العصر الأموي أصحاب على رضى الله عنه، و طلبوا منه السير في هذه السياسة الأموية من التفرقة بين شعب و شعب في تقسيم الأموال و اقامه العدل بينهم، ليكسب تأييد الأشراف من العرب و يستميل بذلك قلوب المخالفين، فما كان رد على الا الرفض لأن ذلك طلب النصر بالجور، و هذا يخالف الاسلام الذي كان أحب اليه من أن يكون خليفة على العرب كافة .

” روى المدائني : أن طائفة من أصحاب على مشوا اليه فقالوا : يا أمير المؤمنين - اعط هذه الأموال، و فضل هؤلاء العرب الأشراف من العرب و قریش على الموالي و العجم، و استعمل من تخاف خلفه من الناس - و انما قالوا له ذلك لما كان معاويه يصنع في المال - فقال لهم : أتأمروني أن

أطلب النصر بالجور؟“ (١٢)

و كان الحجاج من أشدهم في تنفيذ هذه السياسة العصبية الجاهلية ، يدل على ذلك ما روى : ” لما نزل الحجاج واسطا نفى النبط منه ، و كتب الى عامله بالبصرة - وهو الحكم بن أيوب - يقول : اذا أتاك كتابي فاتف من قبلك من النبط ، فانهم مفسدة للدين و الدنيا . فكتب اليه : قد نفيت النبط الا من قرأ منهم القرآن ، و تفقه في الدين . فكتب اليه الحجاج : اذا قرأت كتابي فادع من قبلك من الاطباء ونم بين أيديهم ليقفوا عروقتك ، فان وجدوا فيك عرقا نبطيا فاقطعه و السلام . “ (١٣)

و يقول الاصفهاني : ” كانت العرب - الى أن عادت الدولة العباسية - اذا أقبل العربي من السوق و معه شيء فرأى مولى دفعه اليه ليحمله عنه - فلا يمنع ولا السلطان يغير عليه ، و كان اذا لقيه راكبا و أراد أن ينزله فعلى ، و اذا رغب أحد في تزوج مولاة خطبها من مولاها دون أبيها وحده . “ (١٤)

و هكذا كان الحكم الأموي بعد عصر الصحابة حكما جائرا - و بالتالى كان ضد مبادئ الاسلام ، و كان الظلم يسود جميع مراحل الحكم الأموي ما عدا عهد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وقد اعترف بذلك كثير من المؤرخين النزهاء .

يقول الأستاذ أحمد أسين : ” فالحق أن الحكم الأموي لم يكن حكما اسلاميا ، يسوى فيه بين الناس ، و يكافأ فيه من أحسن - عربيا كان أو مولى - و لم يكن الحكام فيه خدسه للرعية على السواء ، و انما كان الحكم حكما عربيا ، و الحكام فيه خدسه للعرب على حساب غيرهم . كانت تسود العرب

فيه النزعة الجاهلية لا النزعة الاسلامية - فكان الحق و الباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل ، فالعمل حق اذا صدر عن عربى من قبيله ، وهو باطل اذا صدر عن مولى أو عربى من قبيله أخرى . ، (١٥)

هكذا عاش الأعاجم و الموالى فى عهد الحكم الأموى مضطهدين محرومين من جميع حقوقهم الانسانية . وقد كان الحال على هذا المنوال فى ذلك العصر - الا أنه كان يتقلب بين أن يتحسن أو يزداد سوءا تبعا لتغير الحكام الأمويين ، و حسب الظروف السياسية - الى أن جاء عصر الحكم العباسى بعد سقوط الحكم الأموى ، و فيه زال الفرس و غيرهم من الموالى بعض أمانهم ، و من هنا بدأ عصر النفوذ الفارسى فى الدولة الاسلامية . و يعتبر ذلك لدى المؤرخين من أهم خصائص العصر العباسى ، فقد اقتسمت فيه المناصب بين الفرس و العرب بعد أن ظل العرب مستأثرين بها طوال العصر الأموى ، فاذا كان الخليفة عربيا - فالوزير فارسى ، و كان الولاة و قواد الجيش من الفرس و العرب على السواء دون تفرقة . و كان جند المنصور أربعة أقسام : يمنية ، و ربيعية ، مصرية ، و خراسانية ، و كان للنفوذ الفارسى فى العصر العباسى أسباب منها : أن الحكم العباسى كان يمثل النزعة الدينية الاسلامية ، بينما كان الحكم الأموى يمثل النزعة العصبية القومية . و بمقتضى هذه الصبغة الدينية كان من الضرورى أن يكون جميع الرعية متساوين فى نظر الخليفة العباسى ، و أن تكون الحكومة ساهرة على خدمة كل فرد فى الدولة دون ما تفرقة ، و أن يكون جميع المسلمين سواء فى نظر القانون العباسى ، لأن الناس سواسية كائنان المشط - فى نظر الدين الاسلامى - لا فضل لعربى على عجمى ، و لا لعجمى على عربى الا بالتقوى . قال تعالى : " انا خلقناكم من ذكرو أنثى

و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم . ،
آيه ١٢ سورة / ٩٤ .

و منها أن العباسيين كانوا مقتنعين بأن حكومتهم قامت على اکتاف الفرس و الموالى ، و أبو جعفر المنصور يقول : ” يا أهل خراسان أنتم شيعتنا و أنصارنا و أهل دعوتنا . ، ” و يقول الجاحظ : ” دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، و دولة بني مروان عربية أعرابية . ، ” و كانوا يسمون باب خراسان فى بغداد باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان . و أوصى المنصور ابنه قبل وفاته فقال : ” وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فانهم أنصارك وشيعتك ، الذين بذلوا أموالهم فى دولتك و دسأهم دونك ، و من لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم و تتجاوز عن سيئهم ، و تكافئهم على ما كان منهم ، و تخلف من مات منهم فى أهله و ولده . (١٦)

و كان لهذا النفوذ أثر عظيم فى نشر الثقافة و التقاليد و العادات الفارسية فى الدولة العباسية . فقد استلأت قصور الخلفاء بالموالى ، و اقتضرت المراكز الكبيرة الهامة فى الدولة على الفرس مثل الوزارة و غيرها . و أخذ الفرس مكانه مرسوقه فى الدولة حتى كان أقارب الخلفاء و بطانتهم يحسدونهم عليها ، و يدسون الدسائس لابعادهم عن هذه المناصب ، و كان العرب عامة يكيدون لهم من أجل هذا النفوذ الذى استطاعوا الوصول اليه فى الدولة العباسية ، و الذى لم يسبق لهم الوصول الى مثله فى العصر الاموى . يقول ابن خلدون : ” و انما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة و احتيجانهم أسوال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على

أمره ، و شاركوه في سلطانه ، و لم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم و بعد صيتهم ، و عمروا مراتب الدوله و خططها بالرؤساء من ولدهم و صنائعهم ، و احتازوها عن سواهم ، من وزارة و كتابه و قيادة و حجابيه و سيف و قلم ، و يقال أنه كان يدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة و عشرون رئيسا من بين صاحب سيف و صاحب قلم ، زاحموا فينا أهل الدوله بالمناكب ، و دعوهم عنها بالراح ، لمكان أبيهم يحيى من كفاله هرون ، ولى عهدا لخليفه ، حتى شب في حجره و درج عن عشه و غلب على أمره . و كان يدعوهم يا أبت ، فتوجه الايثار من السلطان اليهم و عظمت الداله منهم ، و انبسط الجاه عندهم ، و انصرفت نحوهم الوجوه و خضعت لهم الرقاب ، و قصرت عليهم الآمال ، و تخطت اليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك و تحف الأئمه ، و سيرت الى خزائنهم في سبيل التزلف و الاستماله أسواق الجبايه ، و أفاضوا في رجال الشيعه و عظماء القرايه العطاء ، و طوقوهم المن و كسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، و فكوا العاني ، و مدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، و أسنوا لعفاتهم الجوائز و الصلوات ، و استولوا على القرى و الضياع و الأسمار في سائر الممالك ، حتى أسفوا البطانه و أحقدوا الخاصهه و أغضبوا أهل الولايه ، فكشفت لهم وجوه المنافسه و الحسد ، و دبت الى مهادهم الوثير من الدوله عقارب السعايه ، حتى لقد كان بنو قحطبه أخوال جعفر بن أعظم الساعين عليهم ، ام تعطفهم — لما وقر في نفوسهم من الحسد — عواطف الرحم . ،، (١٧)

نستطيع أن نفهم من هذا النص مدى ما وصل اليه النفوذ الفارسي في الدوله العباسيه . و كان من نتائج هذا النفوذ تأثير الفرس في ثقافه العرب

و عاداتهم و تقاليدهم و لغتهم و أدبهم و فلسفتهم و نظام حكمهم ، و فى التصوف الاسلامى و العقيدة الاسلاميه . و لكل ذلك أمثال و نظائر فى كتب التاريخ ، و كانت نتيجة هذا الاختلاط بين الشعوب و الاقوام المتباينه ، و المذاهب و الفرق المختلفه ، و الأديان و الميول و التقاليد و العادات المتعارضه ، و النظم و اللغات و الثقافات و الآراء المتباعدة ، ازدهار علم الكلام الذى حملت المعتزله لواءه فى أول الأمر دفاعا عن الدين و ذودا عن مبادئ الاسلام ، و قاموا بنشر مذهبهم العقلانى فى أرجاء العالم الاسلامى : ” و انتشر مذهب المعتزله فى نهايه القرن الثامن ، و فى بدايه القرن التاسع فى عهد المنصور ، و هارون الرشيد ، و استمال هذا المذهب المأمون ابن هارون الرشيد ، و صرح به رسميا . “ (١٨)

وقد أنجبت هذه الفلسفه الكلاميه الاعتزاليه رجلاها الأول العظيم أبا يوسف يعقوب بن اسحاق الكندى (١٩) الذى ولد فى بيت الشاعر المتكلم ” ذكر ابن حزم الأندلسى أن اسحاق بن صباح أبا الفيلسوف يعقوب الكندى ، ولى الكوفه ، كان شاعرا مرجئا متكلماً ، “ (٢٠) و سنوضح فيما بعد أن الكندى نشأ متكلماً ، ثم نما فكره و توسع حتى سمي فيلسوف العرب . و جدير بنا أن نذكر الان بعض الأمثله لهذا التأثير و الثقافه الأجنبيه فى هذا العصر الزاهر .

تأثير العرب بالفرس :

وقد تداخلت فى هذا العصر الألفاظ الفارسيه فى اللغة العربيه بكثرة ، و عرف العرب حكم بزجمهر ، و أقوال سابور و أبرويز و غيرهما ، كما عرفوا تاريخ الفرس و أدبهم ، ففريق اطلع على ذلك بواسطه الترجمة ، و فريق آخر

كان يجيد اللغتين الفارسيه و العربيه . وقامت جماعة من الأدباء بترجمه الكتب الفارسيه الى العربيه ، مثل عبد الله بن المقفع ، و آل نويخت ، وحسن بن سهل ، و البلاذرى وغيرهم . فترجم عبد الله بن المقفع من الفارسيه كليله و دمنه ، و كتاب مزدك ، و كتاب التاج ، و كتاب الأدب الكبير ، و الأدب الصغير ، و كتاب اليتيمه ، و بواسطه هذه الكتب أمكن للعرب الاطلاع على أدب الفرس و دينهم و تاريخهم . ولكن لم يقتصر الأمر على مجرد الاطلاع ، بل لقد تأثر أدباء العرب بأفكار الفرس و دينهم .

إن تأثر أبى العتاهيه بالمانويه ، ومحاولة توفيقه بين الاسلام والمانويه ، أمر معروف فى تاريخ الأدب العربى . ترى المانويه أن العالم نشأ من أصليين : هما الظلمه و النور ، و من النور نشأ كل خير ، و من الظلمه نشأ كل شر . و أن أجناس الخير لها علاقة التضاد بأجناس الشر . و ترى أبا العتاهيه يمثل هذه الفكرة فى الأبيات التاليه :

لكل شىء معدن و جوهر	و أوسط و أصغر و أكبر
و كل شىء لاحق بجوهره	أصغره متصل بجوهره
الخير و الشر هما أزواج	لذا نتاج و لذا نتاج
لكل انسان طبيعتسان	خير و شر وهما ضدان (٢١)

و كما أن أبا العتاهيه يمثل الزهد الفارسى فى شعره ، كذلك يمثل أبو نواس و بشار بن برد المجون الفارسى . و الزهد و المجون - و ان كانا موجودين فى المجتمع العربى أيضا - الا أن هؤلاء الشعراء أتوا بما لم يأت بمثله العرب . و من حكم بزرجمهر : ” اذا أقبلت الدنيا فأنفق فانها لا تبنى ، و اذا

أدبرت عنك فأنفق فانها لا تبقى . ” يقول الشاعر :

فأنفق اذا أنفقت ان كنت موسرا و أنفق على ما خيلت حين تعسر
فلا الجود يفنى المال و الجدمقبل ولا البخل يبقى المال و الجدمدبر(٢٢)

تأثر العرب بالثقافة الهندية :

و تأثر العرب بالثقافة الهندية أيضا ، وذلك بعد فتح السند ، وقد فتحه محمد بن قاسم الثقفي حين وجهه الحجاج الى الهند ففتح جزءا عظيما منها سنة ٩١ هـ . ” و تبعت السند للعباسيين ، و ولى أبو جعفر المنصور هشام بن عمر التغلبي عليها سنة ١٢٢ هـ ، فتوسع فى الفتح شمالا ففتح كابل و كشمير ، و أصاب سيبا و رقيقا كثيرا ، و اتصلت العلاقات التجارية بين السند و المملكة الاسلاميه ، فكان يأتى منها العود و السكر و الغاب الهندي . ” (٢٣)

و تبعت هذا الفتح الحركة العلمية ، فكان من الفاتحين أنفسهم العلماء ، و اذن فلم يكن الجيش الاسلامى فاتحا فقط ، بل كان أيضا ناشرا للدعوة و معلما ، و من ناحيه أخرى سرعان ما رأينا الموالى الذين جلبوا من الهند و غنموا فى الحرب و وزعوا على الجند ينبغ منهم و من أولادهم الشعراء و علماء اللغة و المحدثون . ” (٢٤)

وقد تعتبر الهند فى ذلك الوقت — لدى المسلمين — احدى اربع أسم متحضرة ذات صفات ممتازة وهم : الفرس و الهنود و الروم و أهل الصين ، و قديما اشتهر الهنود بالحساب و الطب و علم النجوم و الخراط . (٢٥)

و قال القفطى : ” ان الأسم الثمانية التى عنيت بالعلوم هى : الهند و فارس

و الكلدانيون و اليونانيون و الروم و أهل مصر و العرب و العبرانيون . “ (٢٦) و يقول فى الهند أيضا : ” قد اعترف لها بالحكمة و أقر بالتبريز فى فنون المعرفة ، كل الملل السالفه . و كان الصينيون يسمون ملك الهند ملك الحكمة ، لفرط عنايته بالعلوم . فكان الهند عند جميع الأسم معادن الحكمة و ينبوع العدل و السياسة . “ (٢٧)

و لعل ذلك الاعتراف لهم من الأسم حملهم على الغرور حتى توهموا أنهم شعب ممتاز . و فى ذلك يقول البيرونى : ” يعتقدون (الهنود) فى الأرض أنها أرضهم ، و فى الناس أنهم جنسهم ، و فى الملوك أنهم رؤساؤهم ، و فى الدين أنه نحلتهم ، و فى العلم أنه ما سعهم . و فى طبيعتهم الضن بما يعرفونه و الإفراط فى الصيانة له عن غير أهله منهم فكيف عن غيرهم . “ (٢٨) ولا زالت آثار هذا الغرور توجد فيهم ، و من طبيعتهم أنهم يكثرون قليلهم و يقللون كثير ما عند غيرهم ، ولا يزنون أعمالهم و أعمال غيرهم بميزان واحد ولا بقسطاس مستقيم .

وقد تأثر العرب فى العصر العباسى بعلومهم ، و أخذوا عنهم علم الفلك قبل اتصالهم باليونانيين . يقول الأستاذ أحمد أسين : ” أما فى الرياضيات فقد اتصل المسلمون بالهند و أخذوا عنهم قبل أن يتصلوا اتصالا وثيقا باليونان . فقد ذكروا ” أن وفدا من الهند وفد على أبى جعفر المنصور سنة ١٥٤ هـ و فيهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب و حسابها و سائر أعمال الفلك على مذهب علماء أسته ، و خصوصا على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه (براهمسهطسدهانت) ألفه سنة ٦٢٨ م أو ٦ ، ٧ هـ - الفلكى الرياضى (برهمكبت) فكلف المنصور ذلك الهندى بإسلاء مختصر الكتاب ثم أمر بترجمته

الى اللغة العربية ، و باستخراج كتاب منه تتخذ العرب أصلا في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الأعمال ، فتولى ذلك الفزارى و عمل منه زيجا اشتهر بين علماء العرب حتى أنهم لم يعملوا الا به الى أيام المأمون حيث ابتدأ مذهب بطليموس في الحساب و الجداول الفلكية . ” وقد اقتصر العرب على الجزء الأخير من الاسم السابق ، وهو (سدهانت) ثم حرفوه قليلا و سموه (السندهند) . (٢٩)

و فضلا عن هذا فقد تأثر العرب بنظرياتهم في الحساب و الهندسة و الطب . و كان في بغداد أطباء من الهنود في ذلك العصر ، يقول الجاحظ : أن يحيى بن خالد جلب من أطباء الهند مثل منكهة ، و بازبكر ، و قمبرقل ، و سندباد . (٣٠)

و تأثر العرب أيضا بلغتهم و أدبهم : فقد تعربت كثير من الكلمات الهندية و دخلت في العربية و ذلك بواسطة التجار الهنود الذين كانوا ” ينقلون سلعا هندية ، و يحملون مع هذه السلع أسماءها . و قد حكى السيوطى ألفاظا هندية عربت و وردت في القرآن الكريم مثل : زنجبيل ، و كافور . و ما ورد في اللغة العربية من الألفاظ الهندية : الابنوس ، و البيغاء ، و الخيزران ، و الفلفل و غير ذلك . ، (٣١)

و هكذا تأثر العرب بالهنود في العلوم و الاداب و اللغة و العادات و التقاليد و العقائد و التصوف ، و لعل نحلته الهنود أثرت في أبي العلاء المعرى حيث حرم على نفسه أكل اللحم و كره ذبح الحيوان . و يقول أبو العتاهية :

يا من ترفع بالدنيا و زينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر الى ملك في زى مسكين (٣٢)

ومن المعروف أن بوذا عند الهنود كان ملكا فخلع ثياب الملك و ساح في
البلاد، و في الأبيات السابقة يعبر أبو العتاهيه عن هذا المضمون، و يحث
الناس على الزهد و الرهبنة.

و لم ينحصر تأثير العرب بالفرس و الهنود، بل "عند ما خرج الاسلام
من الجزيرة العربية"، و اعتنقت شعوب فارسيه و سوريه و مصريه، لها
معتقداتها و تراثها الفكرى و اتجاهاها الدينى، لم تتخل هذه الشعوب عن
مقومات حضارتها، فأدخلت فى الاسلام - من حيث تدرى أو لا تدرى - عناصر
غريبه عن الاسلام ظهر أثرها فى الفرق المختلفه، كما ظهر عند المتصوفين
و الفلاسفه. " (٣٣) و قد عارض المصلحون هذه الأفكار الخارجة على
الاسلام، الدخيلة فى التصوف و الفلسفه الاسلاميه فى جميع العصور.
" و كل هذه الفلسفه الدينيه و التعاليم الرياضيه، و القصص و الحكم
الأدبيه، و الشعائر و التقاليد الاجتماعيه، ذابت فى المملكه الاسلاميه،
و كانت عنصرا هاما من عناصر الاداب العربيه. " (٣٤)

المراجع

- ١) رسائل الجاحظ ص ٤١
- ٢) عيون الأخبار ج ١ ص ٢٠٤ لابن قتيبة
- ٣) ضحى الاسلام للأستاذ أحمد أمين ج ١ ص ٨
- ٤) ضحى الاسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٩
- ٥) ضحى الاسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٠

- (٦) نفس المصدر ج ١ ص ١٢
- (٧) نفس المصدر ص ١١
- (٨) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٤
- (٩) أعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ٦٥
- (١٠) تمهيد لتاريخ الفلسفة ص ١٩٤
- (١١) نفس المرجع ص ١٩٥
- (١٢) ضحى الاسلام ص ٢٢
- (١٣) ضحى الاسلام ص ٢٤
- (١٤) نفس المرجع ص ٢٥
- (١٥) نفس المرجع ص ٢٧
- (١٦) ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٥
- (١٧) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٠ - ٢٣١ تخريج الدكتور عبدالواحد وافي
- (١٨) الحضارة العربية ص ٢١٣
- (١٩) الحضارة العربية ص ٢١٣
- (٢٠) الكندي يعقوب بن اسحاق ص ٥ للأستاذ كركيس عواد
- (٢١) ديوان أبي العتاهية
- (٢٢) ضحى الاسلام ج ١ ص ١٨٩
- (٢٣) ضحى الاسلام ص ١٣١
- (٢٤) نفس المرجع السابق
- (٢٥) رسائل الجاحظ ص ٣٧
- (٢٦) أخبار الحكماء ص ٢٧ للقطبي
- (٢٧) نفس المرجع السابق ص ٢٦٦
- (٢٨) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١١

- (٢٩) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٤٢
- (٣٠) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٤٤
- (٣١) نفس المصدر
- (٣٢) ديوان أبى العتاهية
- (٣٣) تاريخ الفلسفة العربية لحناء لفاخوري و خليل الجرحى ٧٨
- (٣٤) ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٥٢

